المحاضرة الأولى : المنهج البنيوي

كثيرة هي المناهج التي اشتملت عليها خارطة النقد الأدبي سواء ما تعلق به النقد الغربي أو النقد الشرقي إبان تطور الدراسات الألسنية في الإتحاد السوفيتي السابق أو الدول الإشتراكية أو تطور اللسانيات في دول المنظومة الغربية ، فضلاً عن الظهير الفلسفي الذي صار مرجعاً للكثير من المناهج النقدية المعاصرة .

المنهج البنيوي يعد حجر الزاوية في تطور المناهج الكثيرة ، فقد خرج هذا المنهج من عباءة الدرس اللساني لاسيما بعد محاضرات العالم اللغوي السويسري (فرديناند دي سوسير) والبحوث التي قدمها عالم الأنثروبولوجيا (كلود ليفي شتراوس) وعالم اللغويات والشعريات (رومان ياكوبسن)

البنيوية منهج يمكن تصنيفه من حيث الدراسات النقدية التي تعنى بالنص وما حول النص أو بالتواصل بشكل عام انه منهج من المناهج النصية / أي المناهج التي تعنى بالظاهرة النصية فيما يتعلق بالنقد الأدبي / ذلك أنها منهج اشتمل على الكثير من العلوم ودخل في الكثير من المعارف

والمنهج البنيوي نظرة عالمية انتقل فيها النظر من الزاوية التي تجزئ الأشياء الى الزاوية الكلية التي تنظر الى الامور على نحو شامل وليس على نحو جزئي . لذا تعد البنيوية تطور من النظرية الذرية الى النظرية الكلية

البنيوية لها ارهاصات لاسيما فيما يتعلق بالنقد الجديد الذي ظهر في عشرينيات القرن العشرين في امريكا أو فيما دعي في علم النفس بالجشطلت وهو النظرة الشمولية بدل النظرة الجزئية ، لكن البنيوية كانت محاولة للخروج بالعلوم الانسانية من جزئيتها في معالجة الظواهر أو في تدخل الذات بالنتائج او في احتمالية تلك النتائج الى الضبط المنهجي الذي يقوم على أساس النتائج الحاسمة أو الصريحة .

المفهوم الأساس للبنية

البنية هي الوحدة الأساسية التي يمكن ان يركز فيها الدارس على مستوى العلوم الانسانية او اللغوية والنقد الادبي على بنية موحدة شاملة عناصرها شاملة يعضد بعضها البعض دون انفصال ، مما يعزز وجود الروابط بين تلك العناصر التي تفقد سماتها وخصائصها لصالح سمات وخصائص البنية التي دخلت في تشكيلها البنية ،

ولكي نتعرف على البنيوية لابد من تعريف البنية

فالبنية هي النسق أو النظام (system) علماً ان البنية التي تنحصر الى البناء (structure) لكنها تقوم على عدم الفصل ما بين عناصر البناء

كل تعريفاتها لا تخرج عن قوانينها كشروط لبناء أي بنية

وحسب (جان بياجيه) عالم النفس السويسري (أن البنية هي نسق من التحولات المعقولة له قوانينها الخاصة باعتباره نسقاً في مقابل الخصائص المميزة للعناصر)

نسق يظل مستمراً ويزداد ثراءً ويقدم الوظيفة التي تعنى بها البنية ما دام عنصر التحولات قائم فيه دون أن تخرج هذه التحولات خارج حدود النسق أو أن تحاول الاقتران بما هو خارج اطار البنية)

بمعنى اننا بإزاء شيء مستقل بذاته يتوافر على عناصر ضبط داخلية تكون ذلك الكل دون ان يؤثر فيه عامل خارجي أو يعتمد في إكتماله على عامل خارجي ، او ان ينقص فيه عنصر يهدم تلك البنية

وتقترن تلك البنية بتوافر الشروط الأساسية السابقة الموجودة في تعريف (بياجيه)، ومنها ما جمعه الناقد الفرنسي (جان ماري أوزياز) في كتابه (الرائد في البنيوية) (نسق يعني نظام تحتكم تخضع له العناصر الداخلة في البنية وفي وتخضع له العلاقات فيما بين تلك العناصر)

نسق من التحولات بمعنى انها ليست ساكنة ، انما متحركة ولكنها في حركة داخلية (داخل البنية وضمن اطارها) ولا تخرج عن حدود بنيتها او اطارها الخارجي ولا تحتاج الى عامل خارجي ، فضلاً عن انها تحولات لا تنقص من تركيبها الداخلي او تفكك اي سلسلة او رابط ما بين العناصر : وقوانينها هي :

١- الكلية (الشمولية) انها كيان مكتمل وشامل لا يضاف لها من الخارج أو يحتاجها ولا يغدو ما بداخله الى الخارج ، انه يتوافر على الكمال من حيث العناصر والارتباط بينها

٢- التحولات : هي التغيرات الباطنة الحاصلة في كل بينة يمكن ان تتوافر على اداء وظيفتها قائمة على اساس ذلك التحول الداخلي لتكون تلك البنية حية وفاعلة

٣- التنظيم الذاتي أو الضبط الذاتي : وهي النظام الذي يضمن أن تكون تلك العناصر الداخلة في روابط المقترنة بحراك باطني او تحولات منضبطة ضمن نسق خاص يحدد في تلك البنية ولا يخرج هذا النسق عن الإطار الذي رسم لها باعتبارها بنية مكتملة

فجسم الانسان الحي يتوافر على نظام (الدورة الدموية والاجهزة والاعضاء كل له نظام فردي لكنها تقترن بالكل)

ومثال على الحديث الشريف (المؤمنون كالجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)

بمعنى تلف اي جزء وعضو سيؤدي الى اشكال في الجسد بأكمله ، لان الجسد كامل لا يحتاج الى شيء يكمله ، واشتغالات الجسد بكل اعضاءه تكتمل باشتغال الاعضاء الاخرى

في ذات الوقت هناك تحولات كثيرة (هدم وبناء مستمر في الخلايا)

كما ان الاستجابات العصبية للإنساني عندما تتغير وظيفته ،لاشك تختلف ان كان الانسان نائم او ميت عما هو صاح او جالس لاسيما في عملية ضخ الدم

عملية التحولات هي الحصيلة التي يتوافر فيها جسم الانسان على وظائفه ويكون بنية مكتملة واي خلل فيها سيحوله من بنية حية الى بنية ميتة

فكل التحولات لها ضابط او منظم يسمى التنظيم الذاتي يضبط حركات الجسم وعملية ضخ الدم

وعند تطبيقه على النص الادبي (الصوري) يوفر لنا النص امكانية ان يكون بنية مكتملة بوجود النظام ، فالنص مجموعة من الالفاظ والرموز والصور

التحولات هي العناصر بكل دلالاتها ورسائلها اذا ما دخلت ضمن النص فهي عملية تحول من وجودها الاول الى وجودها الثاني داخل النص (الالفاظ يأخذ بعضها برقاب بعض (تعالق) كما قال عبدالقاهر الجرجاني بلمحة بنيوية مبكرة (نظرية النظم) البنيوية (وهو الاقتران ما بين

دراسة البنيوية معنية بالكشف عن اسرار كل بنية تعنى بالكشف عن اسرار التشكل (تلمس الاقتران ما بين الالفاظ وما تكونه من دلالات لتشكل نصاً معيناً دون تدخل عالم خارجي)

بمعنى ان دراسة البنية ليست بحاجة للمؤلف و لا العناية بالظرف او التاريخي الذي انتج النص و لا حتى ما يمكن من مغزى قد يكون غائباً عن التكوين النصي ، لكنها توافقت مع مقولة (رولاند بارت) موت المؤلف وهو ازاحة الاطار الظرفي والتاريخي وذاتية القارئ او المتلقي وقد اسماها (سوسير) بالتزامي السايكروني (وهو النظرة الى الظاهرة او المقطع بزمنه منعزلاً عن بعده التراكمي التاريخي الذي قدمه (الدايكروني التطوري) وهو العامل الذي يدرس الظاهرة تاريخياً

فضائل البنيوية انها حولت المنهج من عامل والانطباع او عامل الذبذبة او عدم الاستقرار الى عالم الضبط والاستقرار ومحاولة الخروج بنتائج علمية قد توفر قاعدة مهمة لفهم الظاهرة (النص الادبي) لكنها لا تخلو من عيوب كشف عنها روادها فقدموا تصورات ما بعد البنيوية لكنها ظلت علامة فاصلة في الدرس اللغوي النقدي والانساني ارخ لها لما بعدا مثلما ارخ بها لما قبلها

مصادر البنيوية وروافدها:

اولاً – حركة الشكلانيين الروس ، والتي ظهرت في روسيا بين عامي ١٩١٥ و١٩٣٠، وقد دعت إلى العناية بقراءة النص الأدبي من الداخل ، لأن الأدب من منظورهم يعد نظاما ألسنيا ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاساً للواقع . ولذلك استبعدوا علاقة الأدب بالأفكار والفلسفة والمجتمع والتاريخ.

ثانياً – النقد الجديد الذي ظهر في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته في أمريكا، فقد رأى أعلامه أن الشعر هو نوع من الرياضيات الفنية (الشاعر عزرا باوند)، وأنه لا حاجة فيه

للمضمون، وإنما المهم هو القالب الشعري (ديفيد هيوم)، وأنه لا هدف للشعر سوى الشعر ذاتِه (جون كرو رانسوم)

ثالثاً – انتشار علم اللسانيات الحديث ، والذي يتقاطع مع المدرسة الشكلانية الروسية ، ولعل هذا المصدر هو أهم مصادر البنيوية ، ولا سيما (ألسنية دي سوسير) الذي يعد رائد الألسنية البنيوية ، بسبب محاضراته (دروس في الألسنية العامة) التي نشرها تلامذته عام ١٩١٦ بعد وفاته ، وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة (بنية) فإن الاتجاهات البنيوية كلها قد خرجت من ألسنيته، فيكون هو قد مهد لاستقلال النص الأدبي بوصفه نظاماً لغوياً خاصاً، وفرق بين اللغة والكلام: فـــ (اللغة) عنده هي نتاج المجتمع للملكة الكلامية، أما (الكلام) فهو حدث فردي متصل بالأداء وبالقدرة الذاتية للمتكلم

رابعاً – فهو ما يسمى (حلقة براغ)، وهي حلقة دراسية مكَنة من ثلة من علماء اللغة في براغ – عاصمة التشيك ، وهذه الحلقة وإن كان زعيمها (ماتياس) لكن المحرك الرئيسَ لها هو نفسه مؤسس المدرسة الشكلية الروسية (ياكوبسون) الذي تنقَّل بين روسيا وبراغ والسويد والولايات المتحدة الأمريكية، فكان أينما حلَّ بشَّر بآرائه، وكان له دَور فعَّال في نشر الوعي بالنظرية الجديدة وترسيخها في أوساط المثقفين، ومن هنا التقط علماء حلقة براغ مشعل الدراسات اللغوية الحديثة الذي صبَّ سوسير زَيْتَه ونسجتْ الشكلية خيوطه، وأخذوا يتحدَّثون بشكل صريح متماسك عن بنائية اللغة

- هناك تساؤلات مهمة تتعلق بالبنيوية وهي :

هل البنيوية منهج او مدرسة او علم او قطيعة معرفية او مفهوم ازاحي وما الفرق ما بين القطيعة والازاحة

البنيوية تجد ان الشكل متضمن والمضمون متشكل لا يمكن الفصل بينهما